من مناهج الدعوة إلى الله

(المنهج الصوفي)

أ.د / فوزي عبد العظيم رسلان قمر

أستاذ ورئيس قسم الدعوة والثقافة الإسلامية

بالكلية أصول الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، الأول بلا ابتداء ، الآخر بلا انتهاء ، المتعالى في ذاته ، وصفاته ، وأفعاله ، المنزه عن الشبيه ، والنظير ، والمثيل ، فرد صمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد . وأشهد أن لا إله إلا الله ، لا معبود سواه ، سجد له من في السموات والأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والأصال ، أيقن بذلك العارفون الكمل ، أهل التحقيق من البشر ، فأمدهم الله تعالى بما أصل معرفتهم في الدعوة إليه ، فكانوا بالله هداه مهديين ، اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد الشاهد المشهود له بالرسالة ، الإنسان الكامل خلقا وخُلقا وعلى آله وصحبه ، ومن اهتدى بهديه واتبع سبيله إلى يوم الدين .

بعـــــــد

فإن البحث عن الحقيقة هدف الكمل من البشر ، وسبيل الممكنين في الأرض من المؤمنين العارفين ، المدفوع عنهم من الله رب العالمين ، الذين تولاهم الله – عز وجل – حينما تولوه ، ولم لا ؟ وقد أكد الله – عز وجل – ذلك لنبيه الخاتم – صلى الله عليه وسلم – في قوله سبحانه : " إن وليى الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين» (١) قال سبحانه مخاطباً الجميع فيمن جاهدوا فيه "والذين جاهدوا فينا لنهديهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين» (٢) .. هؤلاء الصفوة من أجل الحقيقة خلقوا ، ولها كانوا ،

(١) سورة الأعراف الآية : ١٩٦

(٢) سورة العنكبوت الآية : ٦٩

ويها نطقوا، وفي سبيلها خرجوا داعين إلى الله - عز وجل - على بصيرة .. وقديما قيل : من لا يعرف لا ينكر .. والإنسان عدو ماجهل .. ومن تمكن حكم .. ومن حكم نطق ، ولله در القائل :

من ذاق طعـام القـوم يدريه

ومن دراه غدا بالروح يشرية

وطالب الحقيقة يطلبها واحدة غير متكثرة ، ثابتة غير متغيرة ، معلومة غير مجهولة ... إذ العالم المحسوس مملوء بالظواهر المتكثرة ، المتغيرة ، المعلولة ، المحدودة بحدود الزمان والمكان .

ومن بين المناهج التي من خلالها أراد الانسان الحقيقة ، وحاول أن يتعرف عليها ، منهجان يتنازعان قصب السبق ، هما : منهجا الفلسفة والتصوف .

بيد أن الفلسفة من خلال منهجها المعروف بالبحث العقلي النظري في طبيعة هذا الوجود الكوني - المحسوس والغيبي - ، والمقعد بالبحث المنطقي القياسي ، وإلى استنتاجاته الناشئة عن المقدمات والأقيسة ، قد أتى بما لا يخرج النظرية الميتافيزيقية عن أنها (دعوى) يقال فيها صادقة أو كاذبة ، ويطالب صاحبها بالدليل على صدق سلامتها من التناقض ... ومن ثم لا ينبغي لهذه النظرية أن يكون أساسها تجربة شخصية ، أو حالا معينة يعنيها الشخص ، فيصدق أو يكذب ، أو يطالب بالدليل ... بل

نرى الناس من أمره إما أن يصدقوا حاله ، أو يكذبوه ، وليس لهم فيه إلا ذاك .

لذلك نقول :

إن التصوف قد خالف منهج الفلسفة ، فهو في جوهره (حال) أو سلوك روحي يتعلق بالفرد ذاته (الصوفي) ، ويعبر – هذا الحال – عنه ، ولا يتعلق بغيره ، وإن كان يؤيده غيره في حاله هذا ، أو لا يؤيده .

وفي هذ البحث – بمشيئة الله تعالى – سأقوم باستجلاء هذا المنهج الصوفي من خلال أقوال السادة – من القوم – أنفسهم ، موضحا منهجهم في الوصول للحقيقة ، والدعوة إلي الله – عز وجل – من خلالها ، ولكن قد يصدك عن هؤلاء القوم ، والتعرف بهم ، ما قد نسب إلى بعضهم من أقوال غامضة ، أو أفعال قد يحكم عليها بالمخالفة ، ولك في ذلك أن تؤيد أو تعارض – هذا القول ، أو ذاك الفعل – دون أن تحكم على الطائفة كلها بقول أو فعل بعضهم ، إذ البعض ليس بحجة على الكل ، وباب الفهم مفتوح لمن أراد أن يعرف أو يتعلم ، والحقيقة بنت البحث ، وهي مشروطة بحسن قرع الباب ، وطلب التفهم ، فمن أحسن قرع الباب فتح له ، وما على الجميع إلا أن يذعن إلي ما جاء في قول الله تعالى : «قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا» (١)

الأمر الذي يؤكد حرية البحث والاجتهاد ، وضرورة ذلك إذا ما دعم

(١) سورة سبأ من الآية : ٤٦ .

القـول بالأدلة والبـراهين المسـتمـدة من القـرآن الكريم ، والسـنة النبـوية المطهرة ، وأقوال الصوفية أنفسهم ... كي لا تكون الحـجة قاصـرة ، والله هو الهادى إلى الحق وإلى طريقه المستقيم .

التعريف بالمنهج الصوفى

تعريف المنهج :

يقال : «نهج» الطريق – نهجا ونهوجا : أى وضح واستبان ، ومنه : نهج أمره . وانتهج الطريق : استبانه وسلكه . و(استنهج) الطريق : صار نهجا . – وسبيل فلان : سلك مسلكه .

و(المنهاج) : الطريق الواضح . وفى التنزيل : «لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا» (١) . والخطة المرسومة (محدثة) . ومنه : منهاج الدراسة ، ومنهاج التعليم ، ونحوهما . (ج) مناهج (٢) .

من هذه المعانى اللغوية نستطيع أن نقول :

بأن «المنهج فى عمومه هو الطريق الواضح فى التعبير عن شئ ، أو فى عمل شئ ، أو فى تعليم شئ طبقا لمبادئ معينة ، ونظام معين ، وبغية الوصول إلى غاية معينة» (٣)

هذا «ولقد ظهرت فى القرن السابع عشر كتب تعالج مسألة المنهج : "الأرجانون الجديد" لبيكون ، "المقال فى المنهج" لديكارت ، "طب العقل" لتشرنهاوس ، "البحث عن الحقيقة" لمالبرانش ، "فن التفكير" لفلاسفة بوردويال » (٤)

---

(١) سورة المائدة من الآية : ٤٨ .

(٢) المعجم الوسيط – مجمع اللغة العربية – القاهرة ٢ / ٩٩٥ مادة «نهج» .

(٣) المعجم الفلسفى – مراد وهبة / ٦٧٣ مصطلح (منهج) .

(٤) المصدر السابق – نفس الصفحة .

وفيما يتعلق بمناهج البحث فإنها تعنى : «الطرق التى ينبغى أن يسير عليها الباحث فى دراسته لظواهر علمه لكى يصل إلى نتائج يقينية فى الكشف عن طبيعة هذه الظواهر ، وما يكتنفها من أسباب ومسببات ، وما تخضع له من قوانين .

وقد أفرد لمناهج البحث فرع من فروع المنطق يطلق عليه اسم «المنطق الاستقراطى» أو «منطق المادة» للإشارة إلى أنه يعصم الفكر من أن يتعارض مع مادة الحقائق الخارجية ، أو مع الواقع الخارجى ، وللتفرقة بينه وبين «منطق الصورة» الذى يبين القواعد التى تجب مراعاتها حتى لا يتعارض الفكر مع نفسه ، بقطع النظر عن اتفاقه أو عدم اتفاقه مع الواقع الخارجى ، كالقواعد التى تجب مراعاتها فى تركيب مقدمات القياس التى يسلم بها الفكر ، حتى تفرض عليه نتيجة لا يسعه إلا قبولها وإلا تعارض مع نفسه» (١) .

هذا ومن الثابت أن العلوم تتفق - جميعها - فى اتجاهاتها الأساسية ووجهة نظرها إلى الظوار التى تعالجها ، والأغراض العامة التى تواجهها وترمى إليها من وراء الدراسة ، وتتمثل هذه الأغراض فى الكشف عن طبيعة الظواهر وما تخضع له من قوانين ، وقد كان لزاما - وهى متفقة فى هذه الأمور - أن تتفق فى بعض مناهج البحث ، ولذلك كان من بين مناهج البحث بعض طرق تستخدم في مختلف فروع العلوم ،

(١) معجم العلوم الاجتماعية -إعداد نخبة من الأساتذة المتخصصين -الهيئة المصرية العامة للكتاب / ٥٦٨ .

ويطلق على هذه الطرق اسم «الطرق العامة» أو مناهج البحث المشتركة» .

ولكن لكل مجموعة من العلوم ، بل لكل فرع من داخل مجموعته ، موضوعات معينة وأغراض خاصة تمتاز بها المجموعة عما عداها من المجموعات ، ويمتاز بها الفرع عما عداه من الفروع ، وقد نجم عن ذلك أن استخدمت كل مجموعة منها ، واستخدم كل فرع في داخل مجموعته طرقا خاصة تتفق مع طبيعة الموضوعات ، وتدعو إليها مميزات الظواهر وما ترمى إليه من أغراض خاصة ، ويطلقون على هذه الطرق اسم «الطرق الخاصة» أو «مناهج البحث الخاصة»

ولكل شعبة من شعب العلم الواحد مسائل متميزة قد تختلف في بعض خواصها ومظاهرها عن مسائل الشعب الأخرى ، ولذلك نرى أن العلم الواحد قد يستخدم في دراساته لموضوع من موضوعاته طرقا لا يستخدامها ولا ينبغي استخدامها في موضوع آخر من العلم نفسه » (١)

التعريف بعلم التصوف :

إذا أردنا أن نبين علم التصوف – وهو علم معترف به ويدرس كسائر العلوم – فإن قولنا في تعريف هذا العلم لا يخرج عن أنه :

«علم يعرف كيفية ترقى أهل الكمال من النوع الانساني في مدارج

(١) انظر بتفصيل : المصدر السابق – نفس الصفحة وما بعدها .

والأعمال والأحوال التي كانوا بها مترسمين ، فكذلك الصوفية عندي والله أعلم» (١) .

ويقول القشيرى – رحمه الله تعالى – : «اعلموا أن المسلمين بعد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لم يتسمَّ أفاضلهم فى عصرهم بتسمية علم سوى صحبة الرسول – صلى الله عليه وسلم – إذ لا أفضلية فوقها فقيل لهم الصحابة ، ولما أدركهم أهل العصر الثانى سمى من صحب الصحابة بالتابعين ، ثم اختلف الناس وتباينت المراتب فقيل لخواص الناس ممن لهم شدة عناية بأمر الدين : الزهاد والعباد ، ثم ظهرت البدعة وحصل التداعي بين الفرق فكل فريق ادعوا أن فيهم زهادا، فانفرد خواص أهل السنة المراعون أنفسهم مع الله سبحانه وتعالى الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة باسم التصوف ، واشتهر هذا الاسم لهؤلاء الأكابر قبل المائتين من الهجرة » (٢)

ثم يقول – رحمه الله تعالى – :

«وليس يشهد لهذا الاسم من حيث العربية قياس ولا اشتقاق ، والأظهر أنه كاللقب . فأما من قال أنه من الصوف . وتصوف إذا لبس الصوف – كما يقال تقمص إذا لبس القميص – فذلك وجه . ولكن القوم لم يختصوا بلبس الصوف . ومن قال إنهم منسوبون إلى صفة مسجد الرسول ، فالنسبة إلى الصفة لا يجئ على نحو الصوفى ، ومن قال إنه

(١) اللمع – لأبى نصر الطوسى – تحقيق د . عبد الحليم محمود ، طه عبد الباقى سرور / ٤٠ ، ٤١ .
(٢) الموسوعة الذهبية للعلوم الاسلامية – د . فاطمة محجوب ٩ / ٤٦٤ .

من الصفاء فاشتقاق الصوفي من الصفاء بعيد في مقتضى اللغة ، وقول من قال إنه مشتق من الصف فكأنهم في الصف الأول بقلوبهم من حيث المحاضرة مع الله تعالى ، فالمعنى صحيح ولكن اللغة لا تقتضي هذه النسبة إلى الصف» (١)

وهنا اعتبر القشيري من خلال قوله : (والأظهر أنه كاللقب) أن اسم الصوفي اسما جامدا ، أو لقبا أطلق على هذه الطائفة لتمييزها عن غيرها ... ومن ثم فلا يسأل عن معناه أو اشتقاقه ... ومع ذلك فهو لا يعارض نسبته إلى الصوفي ، وذلك لصحتها لغوياً ، كما لا يعارض المعنى المأخوذ من الصف لتحقيق ذلك فيهم ... لكن اللغة لا تقتضي هذه النسبة ، فقال باللقب .

ويقول ابن تيمية – رحمه الله تعالى – في رسالته : «الصوفية والفقراء» : «أما لفظ الصوفي فإنه لم يكن مشهورا في القرون الثلاثة الأولى ، وإنما اشتهر التكلم به بعد ذلك وقد نقل التكلم به عن غير واحد من الأئمة والشيوخ كالامام ابن حنبل (المتوفى سنة ٢٤١ هـ) وأبي سليمان الداراني (المتوفى سنة ٢٣٥ هـ) ، وغيرهما ، فقد روى أن ابن حنبل كان يسأل الحارث المحاسبي (المتوفى سنة ٢٤٢ هـ) في بعض المسائل ويقول : ما تقول فيها يا صوفي ؟ » (٢)

هذا ويلاحظ في رسالة الشيخ ابن تيمية – رحمه الله تعالى – أنه

---

(١) الرسالة القشيرية – القشيري / ١٢٦ .

(٢) رسالة الصوفية والفقراء – ابن تيمية / ١٣

يشير إلى انتشار اسم الصوفى على الألسنة فى هذا العصر ، لا إلى أول زمن لاستعمال هذا اللفظ .

وقال التهانوى (المتوفى فى القرن الثانى عشر الهجرى) :

«الصوفى : بالضم وسكون الواو عند أهل التصوف ... هو فان بنفسه باق بالله تعالى ، مستخلص من الطبائع متصل بحقيقة الحقائق . والمتصوف هو الذى يجاهد لطلب هذه الدرجة . والمستصوصف هو الذى يشبه نفسه بالصوفى والمتصوف لطلب الجاه والدنيا ، وليس بالحقيقة من الصوفى والمتصوف »(١) .

ثم استطرد يقول :

« .. وكان كبار القوم على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يسمون الصحابة ، ومن جاء بعدهم التابعين ، ثم من يلونهم تابعى التابعين ، ثم الزهاد والعباد من القائمين بأمر الدين ، ولما ظهر أهل البدعة بعدهم ادعت كل طائفة أن فيهم زهادا وعبادا وانفرد الخواص من أهل السنة والجماعة الذين كانوا يعنون رعاية الأنفاس أمراً لازماً باسم الصوفية ، واشتهرت هذه التسمية ولصقت بهم حتى قيل إنها بالنسبة لهم من أسماء الأعلام ، وكان إطلاقها عليهم قبل انقضاء مائتى عام على هجرة الرسول عليه السلام»(٢) .

(١) كشاف اصطلاحات الفنون - التهانوى ٤ / ٢٤٢ ، ٢٤٣ .

(٢) المصدر السابق : ٤ / ٢٤٨ .

«وفي توضيح المذاهب أن التصوف لغة : لبس الصوف علامة على الزهد ترك الدنيا .

أما اصطلاح أهل العرفان : فهو تطهير القلب من حب غير الله ، وتزيين الظاهر من حيث العمل والاعتقاد ، وتنفيذ المأمورات والابتعاد عن المنهيات ، والمواظبة على تنفيذ ما أمر به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، وأفراد هذه الجماعة هم المتصوفة المحقون» (١)

هذا ومن الثابت المقرر لدى الصوفية أنفسهم أنهم يرفضون كل الآراء والفروض التي ترجع نشأتهم - سواء أكان ذلك في التسمية أم في الأقوال والمعتقدات - إلى الوثنية اليونانية ، أو إلى الفلسفة الهندية ، والبوذية ، أو أنها تعد تقليدا للمسيحية ، أو أنها تشربت بالرهبانية ... بل يقولون : إن التصوف إنما هو لباب القرآن الكريم ، والسنة النبوية الشريفة ، وأنه نتيجة لحالتي الكشف والشهود لأولياء الله الذين استحقوا «المواهب» الإلهية عن طريق تزكية النفس ، وتصفية الباطن ، وصاروا موضعا للخواطر الربانية والملائكية .(٢)

وقصارى القول : أن أقرب الأقوال إلى العقل والمنطق واللغة ، أن الصوفية لقب أطلق على هذه الطائفة لتمييزها عن غيرها ، وأن كلمة (صوفي) كلمة عربية مشتقة من كلمة (صوف) ، وأن السبب في ذلك لا يخرج عن تسمية الزهاد والمرتاضين في القرون الأولى الإسلامية باسم

---

(١) المصدر السابق : ٤ / ٢٤٨ .

(٢) انظر : تاريخ التصوف في الاسلام - د . قاسم غني / ١٣ - ١٥ .

(الصوفية) لكونهم يرتدون الملابس الصوفية الخشنة أسوة بالأنبياء والصالحين ، كما أن كلمة (تصوف) تعد مصدرا من باب (التفعل) والمراد منها التلبس بالصوف ، وقد ظهرت كلمة (التصوف) فى أول الأمر لاعتياد الزهاد والعابدين لبس الصوف ... ثم صارت بعد ذلك مرادفة لكلمة (عارف) سواء لبس الصوف أم لا !! شريطة أن يدخل فى زمرة الفقراء الملقبون بالصوفية .

صلة التصوف بالاسلام :

إن تاريخ التصوف فى الاسلام جزء لا يتجزأ من تاريخ الاسلام نفسه ، وليس شيئا اجتلب من الخارج وأخذه الإسلام وتحقق به ... ! لقد نبع التصوف من روح الاسلام وتعاليمه السامية ...

ولك أن تقول إن الاسلام ليس دينا صوفيا ؟ والحق كذلك لو أنه كان دينا إقليميا محصورا فى الجزيرة العربية ولم يخرج منها ويختلط بأمم أخرى ، وأن القرآن الكريم يخاطب عقلا بعينه ... !!

لكن الأمر بخلاف ذلك إنه الدين الخاتم ، ورسالته – صلى الله عليه وسلم – رسالة عالمية ، فهى لا تختص ببيئة معينة ، كما أنها لا تختص بجنس أو بعنصر بعينه ، إنها للناس جميعا ، قال تعالى : «قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيى ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله

(١) سورة الأعراف الآية : ١٥٨ .

وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون» (١) ، وقال - عز شأنه - : «كذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه فريق فى الجنة وفريق فى السعير» (١) وقال سبحانه : «تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا» (٢)

ومن المسلم به أنه لم تكن فى عصر الرسول - صلى الله عليه وسلم - آية اختلاف ، لأنه - صلى الله عليه وسلم - هو المبلغ وإليه كان المرجع فى كل أمر اختلف فيه ، قال الله تعالى : «فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما» (٣) ، وقال سبحانه : «وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله وروسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا» (٤)

وحينما لحق الرسول - صلى الله عليه وسلم - بالرفيق الأعلى ظهر فى خلافة سيدنا أبى بكر - رضى الله عنه - مباشرة مسألة الفرق بين المسلم الحقيقى وأهل الردة - أى أولئك الذين ارتدوا عن الاسلام ... - ، ولم تمض مدة بعد مقتل سيدنا عثمان - رضى الله عنه - إلا وانقسم المسلمون إلى عدة فرق مخاصمة قبل انقضاء ربع قرن على وفاة الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، وبعد استشهاد سيدنا على بن أبى طالب - كرم الله وجهه - ، ظهرت فئة باسم المرجئة ، وكانت تقول : إن شرط

(١) سورة الشورى الآية : ٧ .
(٢) سورة الفرقان الآية : ١ .
(٣) سورة النساء الآية : ٦٥ .
(٤) سورة الأحزاب الآية : ٣٦ .

الايمان هو الإقرار بالتوحيد ، وهى ترى أن المعصية لا تضر شيئا مع الايمان ، وأن الايمان مقدم على العمل ... وكانت هذه الآراء مرضية للكثيرين من بنى أمية ، فى حين أن ظهر مخالفيهم وهم جماعة من "الخوارج تسمى باسم «الأزارقة» وهم أتباع «نافع بن الأزرق» الذى كان من بنى حنيفة ، وكانوا أقوى الخوارج شكيمة ، وأكثرهم عددا وأعزهم نفرا ... كانوا يقولون : بأن مخاليفهم غير مؤمنين ، وأنهم أهل شرك مخلدون في النار ، ويحل قتالهم وقتل أطفالهم ، أى أن الذنب الذى أوجب كفر مخالفيهم يسرى إلى أولادهم . وكانت جماعة أخرى من الخوارج تسمى «النجدات» أتباع "نجدة بن عويمر" من "بنى حنيفة" قاموا بمخالفة «الأزارقة» وقالوا : إن القتل يجب لمن يرتكب إثما كبيرا يتفق المسلمون كافة على تحريمه وفق رأى علماء الفقه ....

مدى الخلاف بين المسلمين :

إذا كانت هناك بعض الأسباب الظاهرة بين المسلمين ، فإنه قد اختفى بعضها – بلا شك – فى لجة التاريخ ، أمام الدارسين والباحثين ، والذى يبدو لنا جليا أمام هذا الخلاف أنه قد اتخذ مسلكين : أحدهما عملى ، والآخر علمى .

أما الخلاف العملى : فهو كالذى وقع من الخارجين على «عثمان" رضى الله عنه ، وكالذى وقع بين "على بن أبى طالب" كرم الله وجهه والخارجين عليه ، فتلك الأحداث العملية لها أسبابها ونتائجها سجلها التاريخ السياسى ، ووضح أسبابها .

والباحث العلمي لا يهمه هذه الأحداث التاريخية ، إلا إذا سجلت هذه الأحداث تأثيرا واقعيا على الاتجاهات والمذاهب الفكرية ، وذلك كالخلاف بين "على بن أبى طالب" كرم الله وجهه ، والأمويين الخارجين عليه ، حيث انبعثت فكرة من لهم حق اختيار الخليفة ؟ أهم أهل المدينة وحدهم ؟ والناس لهم تبع ، أم حق الاختيار للمسلمين فى كل البقاع ؟ من هذا الاختلاف ظهرت فرق ومذاهب مختلفة ، ونجم عن ذلك انبعاث حروب شديدة ، اشتدت هذه الحروب حتى صار بأس المسلمين فيما بينهم شديدا .

الأمر الثاني من الخلاف بين المسلمين ، هو الخلاف العلمى ، هذا الخلاف العلمى النظرى تمثل حول بعض الأمور التى تتعلق بالقضايا الفكرية غير الثابتة بالعقيدة ، والتى اصطلح عليها بالخلاف فى الفروع ، هذا الخلاف النظرى لم يتجاوز من ميدان القول إلى ميدان العمل ، ولم تظهر حدة الخلاف إلا أن يحكم أحدهما على الآخر بالإبتداع أو الخطأ .

ومهما يكن من الخلاف النظرى فإنه لم يتناول لب الدين ، حيث لم يكن الاختلاف فى وحدانية الله – تعالى – وشهادة أن محمدا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ، ولا فى القرآن الكريم ، ولا فى أصول الفرائض كالصلاة والصيام والزكاة والحج ، ولا فى أداء هذه التكاليف ، ولا فى أمر علم من الدين بالضرورة كتحريم الخمر ، والخنزير ، والأحكام المتعلقة بالميراث ... إلخ وإنما كان الاختلاف فى أمور لا تمس الأركان ولا الأصول العامة للإسلام .

وأنه إذا كانت هناك آراء تمس الاعتقاد فقد نحى العلماء معتنقيها عن أن يكونوا مسلمين ، فمثلا ظهرت طائفة في عهد الامام علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - تسمى «السبئية» تعتقد حلول الله في علي - كرم الله وجهه - وأخرى تعتقد أن جبريل - عليه السلام - أخطأ ونزل بالرسالة على محمد - صلى الله عليه وسلم - والأصل أنها كانت لعلي - كرم الله وجهه - هذه الفئة تسمى «الغرابية» ، وقد أجمع المسلمون على أن هاتين الفرقتين ليستا من أهل الاسلام في شئ .

وننتهي من هذا أن الاختلاف شر إذا تمثل في العقائد ، وحول السياسة وذلك لما رواه الامام البخاري عن زينب بنت جحش - رضى الله عنها - أنها قالت : «استيقظ النبي - صلى الله عليه وسلم - محمرا وجهه يقول «لا إله إلا الله ، ويل للعرب من شر قد اقترب» ويشير النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى ما يجرى بين المسلمين من خلاف بعده . يؤكد هذا أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : « افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة ، وتفرقت النصارى على اثنين وسبعين فرقة ، وتفرقت أمتي على ثلاث و سبعين فرقة» (١)

قال الشيخ محمد أبو زهرة :

وقد تكلم علماء السنة في صحة هذا الحديث الذي روى بعده روايات مختلفة . ولقد قال «المقبلي» في كتابه العلم الشامخ : وحديث افتراق الأمة

---

(١) الحديث رواه : أبو داود ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجة ، من أبي هريرة - رضى الله عنه - الجامع الصغير - السيوطي ١ / ٤٨ وصححه .

حاصل معناه ... » . (١)

ولا غرو فإن الاختلاف حول العقائد في جملته شر ، بخلاف الخلاف الفقهي في المسائل والقضايا التي لم ينص عليها في الكتاب والسنة ، فهذا أمر مفروض إذا اتبع في ذلك المنهج العلمي القائم على الاستنتاج من الأقيسة المعلومة ، لمعاني الكتاب العزيز ، والسنة النبوية المطهرة ، ولقد كان عمر بن عبد العزيز – رضي الله عنه – يسره اختلاف الصحابة في الفروع ويقول :

« ما أحب أن أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لا يختلفون ، لأنه لو كان قولا واحدا لكان الناس في ضيق ، وأنهم أئمة يقتدى بهم فلو أخذ رجل بقول أحدهم لكان سنة» (٢) .

وعلى هذا فإن المذاهب الفقهية كانت خيرا وبركة ، حيث رفعت عن المسلمين الحرج – فيما جد من قضايا – ممتثلة في ذلك بما جاء في قول الله تعالى : «وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير»(٣)

---

(١) تاريخ المذاهب الاسلامية – الشيخ محمد أبو زهرة ١ / ١٠ ، ١١ .
(٢) المصدر السابق / ١١
(٣) سورة الحج الآية : ٧٨ .

موقف الامام الغزالى من حديث افتراق الأمة :

يقول رضى الله عنه : «لقد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور دأبى وديدنى من أول أمرى وريعان عمرى ، غريزة وفطرة من الله وضعتا فى جبلتى لا باختيارى وحيلتى ، حتى انحلت عنى رابطة التقليد ، وانكسرت على العقائد الموروثة على قرب عهد سن الصبا ، إذ رأيت صبيان النصارى لا يكون لهم نشوء إلا على التنصر ، وصبيان اليهود لا نشوء لهم إلا على التهود ، وصبيان المسلمين لا نشوء لهم إلا على الاسلام ، وسمعت الحديث المروى عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – حيث قال : «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه» (١) ، فتحرك باطنى إلى طلب حقيقة الفطرة الأصلية ، وحقيقة الحقائق العارضة ، بتقليد الوالدين والاستاذين ، والتمييز بين هذه التقليدات ، وأوائلها تلقينات ، وفى تمييز الحق منها عن الباطل اختلافات، فقلت فى نفسى : أولا : إنما مطلوبى العلم بحقائق الأمور ، فلابد من طلب حقيقة العلم ما هى ؟ فظهر لى أن العلم اليقينى هو الذى ينكشف فيه المعلوم انكشافا لا يبقى معه ريب ، ولا تقارنه إمكان الغلط والوهم ، ولا يتسع القلب لتقدير ذلك ، بل الأمان من الخطأ ينبغى أن يكون مقارنا لليقين مقارنة لو تحدى بإظهار بطلانه مثلا من يقلب الحجر ذهبا والعصا ثعبانا ، لم يورث ذلك شكا وإنكارا ، فانى إذا علمت أن العشرة أكثر من

---

(١) رواه أبو يعلى فى مسنده ، والطبرانى فى الكبير ، والبيهقى فى السنن عن الأسود بن سريع (الجامع الصغير – السيوطى – ٢ / ٩٤ وصححه)

الثلاثة ، فلو قال لى قائل : . بل الثلاثة أكثر من العشرة بدليل أنى أقلب هذه العصا ثعبانا ، وقلبها ، وشاهدت ذلك منه ، لم أشك بسببه فى معرفتى ، ولم يحصل لى منه إلا التعجب من كيفية قدرته عليه ! فأما الشك فيما علمته فلا .

ثم علمت أن كل مالا أعلمه على هذا الوجه ، ولا أتيقنه هذا النوع من اليقين ، فهو علم لا ثقة به ، ولا أمان معه ، وكل علم لا أمان معه فليس بعلم يقينى . (١)

بهذه الصورة وقف الامام الغزالى - رضى الله عنه - على العلم اليقينى وميز بين كل محق ومبطل ، ومتسنن ومبتدع ، وفحص عقيدة كل فرقة واستكشف أسرار مذهب كل طائفة .

يقول رضى الله عنه :

«لا أغادر باطنيا إلا وأحب أن أطلع على باطنيته ، ولا ظاهريا إلا وأريد أن أعلم ما حاصل ظاهريته ، ولا فلسفيا إلا وأقصد الوقوف على كنه فلسفته . ولا متكلما إلا واجتهد فى الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته، ولا صوفيا إلا وأحرص على العثور على سر صوفيته ، ولا متعبدا إلا وأترصد ما يرجع إليه حاصل عبادته ، ولا زنديقا معطلا إلا وأتجسس وراءه لتنبه لأسباب جرأته فى تعطيله وزندقته» (٢)

---

(١) المنقذ من الضلال - الغزالى / ٤٩ ، ٥٠ .
(٢) المصدر السابق / ٤٨ .

المنهج الصوفى وطبيعته :

يتبين للباحث – عند دراسته للصوفية – البون الشاسع بين منهجهم فى المعرفة وطلبهم للعلم اليقينى ، ومنهج المتكلمين والفلاسفة .... فبينما كان منهج هؤلاء الآخرين يستند على العقل ، قدم الصوفية منهجا جديداء أسموه أولا – الاستنباط القرآنى : وذلك بأن يردد الصوفى القرآن الكريم، مستغرقا فيه حتى تنفتح له المعانى القرآنية ، ثم ينتقل الصوفى – بعد ذلك – إلى معاناة العبادة والخلوة والتردد بين المقامات الصوفية والأحوال حتى تنقدح المعرفة الإلهية ، أو تلقى فيه ، فيتذوقها .

فإذا كان منهج المتكلمين والفلاسفة هوالعقل ، فقد انتهى موقف الصوفية إلى الذوق والحدس ، وقد اختلف الصوفية أشد الاختلاف مع المتكلمين والفلاسفة فى طبيعة المنهج ، ورفضوا العقل وأسسه رفضا تاما.

يقول الدكتور عبد الحليم محمود – رحمه الله تعالى – :

«إن صلة التصوف بالاسلام – منهجا وموضوعا – لا يتأتى فهمهما فهما صحيحا إلا إذا عرفنا التصوف تعريفا ينطبق على حقيقته أكمل ما يكون الانطباق ، بيد أن تعريفه ليس من السهولة بمكان ، ذلك : أن تعريفات التصوف – كما يقول مؤرخو التصوف القدماء – أربت على الألف ، وكلها تعريفات لها وزنها وقيمتها ، إذ أنها بأقلام الصوفية

أنفسهم ، فإنه من الصعوبة بمكان أن يقف الإنسان منها موقف الحكم ، ويفضل بعضها على بعض ، ويجعل بعضها فى المرتبة الأولى ، ويجعل البعض الآخر ثانوياً ، ثم ينتهى بتعريف جامع مانع .

ما هو القياس ؟ وما هو الفيصل ؟

ثم بأى سلطان يدخل الإنسان بين هؤلاء القوم ذوى المذاقات الرقيقة والمشاعر الروحية الرفيعة ؟

أبسلطان العلم : ملاحظة واستقراء ؟!

أم بسلطان العقل : بحثا واستنتاجا ؟!

أم بسلطان الروح : إشراقا وإلهاما ؟!

لقد أجمع الصوفية فى كل العصور على أن تجاربهم الروحية تستعصى عن الوصف ، وتعلو على التعبير ، وإذا وصفوا ما أدركوه أو شاهدوه ، أو كشف لهم ، فإنما هى أمور (ذوقية) أو (وجدانية) لا تفى اللغة بالتعبير عنها ، وإظهارها لمن لا يدركها» . (١)

ولا غرو فإن إدراك العلم اليقينى ليس بالأمر السهل ، فهو يحتاج إلى جهد ومجاهدة ، وصبر ، ومثابرة ، وانقطاع كامل لادراك حقيقته ، ولقد أظهر ذلك الامام الغزالى – رضى الله عنه – وحصر مناهج الطالبين للحق فى أربع فرق ، يندرج تحت هذه الفرق مذاهب ومناحى عدة ، فيقول

(١) غيث المواهب العلية فى شرح الحكم العطائية – د. عبد الحليم محمود ، د . محمود بن الشريف ١ / ٥

- رضى الله عنه - :

«انحصرت أصناف الطالبين عندى فى أربع فرق :

١ - المتكلمون : وهم يدعون أنهم أهل الرأى والنظر .

٢ - الباطنية : وهم يزعمون أنهم أصحاب التعليم والمخصوصون بالاقتباس من الامام المعصوم .

٣ - الفلاسفة : وهم يزعمون أنهم أهل المنطق والبرهان .

٤ - الصوفية : وهم يدعون أنهم خواص الحضرة وأهل الكشف والمشاهدة (١) .

وابتدأ الامام الغزالى - رضى الله عنه - فى إنكار طرق الفرق الثلاثة الأولى وهم : المتكلمون ، والباطنية ، والفلاسفة .. أما المتكلمون فقد قام طائفة منهم بما ندبهم الله تعالى إليه ، فأحسنوا الذب عن السنة، والنضال عن العقيدة المتلقاه بالقبول من النبوة ، والتغيير فى وجه ما أحدث من البدعة ، ولكنهم اعتمدوا فى ذلك على مقدمات تسلموها من خصومهم ، واضطرهم إلى تسليمها : إما التقليد ، أو إجماع الأمة ، أو مجرد القبول من القرآن والأخبار ، وكان أكثر خوضهم فى استخراج مناقضات الخصوم ، ومؤاخذتهم بلوازم مسلماتهم ، وهذا قليل النفع فى حق من لا يسلم سوى الضروريات شيئا» (٢).

(١) المنقذ من الضلال - الغزالى / ٥٥ .

(٢) المصدر السابق / ٥٦ ، ٥٧ .

وفيما يتعلق بالفلاسفة فقد ذكرهم – الغزالى – وقسمهم إلى ثلاثة مذاهب : الصنف الأول : الدهريون : وهم طائفة من الأقدمين جحدوا الصانع المدبر ، العالم القادر ، وزعموا أن العالم لم يزل موجودا كذلك بنفسه بلا صانع ، ولم يزل الحيوان من النطفة ، والنطفة من الحيوان .. هؤلاء هم الذنادقة .

الصنف الثانى : الطبيعيون : وهم قوم أكثروا بحثهم عن عالم الطبيعة ، وعن عجائب الحيوان والنبات ... إلا أن هؤلاء ذهبوا إلى أن النفس تموت ولا تعود ، فجحدوا الآخرة ، وأنكروا الجنة والنار والحشر والنشر ، والقيامة والحساب . فلم يبق عندهم للطاعة ثواب ، ولا للمعصية عقاب ، فانحل عنهم اللجام ، وانهمكوا فى الشهوات انهماك الأنعام . وهؤلاء أيضا زنادقة لأن أصل الايمان هو الايمان بالله واليوم الآخر .

الصنف الثالث : الالهيون : وهم المتأخرون منهم مثل : سقراط وهو أستاذ أفلاطون ، وأفلاطون أستاذ أرسطاطاليس ، وأرسطاطاليس هو الذى رتب لهم المنطق ، وهذب لهم العلوم ، وحرر لهم ما لم يكن محررا من قبل ... وهم بجملتهم ردوا على الصنفين الأولين من الدهرية والطبيعية، وأوردوا فى الكشف عن فضائحهم ما أغنوا به غيرهم ، «وكفى الله المؤمنين القتال» [1] بتقاتلهم ... ومجموع ما نقل عندنا من فلسفة أرسطاطاليس ينحصر فى ثلاثة أقسام :

---

(١) سورة الأحزاب من الآية : ٢٥ .